السمع

عناصر الموضوع

مفهوم السمع	٣٧٢
السمع في الاستعمال القرآني	٣٧٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٧٤
اقتران السمع والبصر	٣٧٧
السمع في حق الله عز وجل	٣٧٩
مسؤولية السمع	٣٨٠
أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم	٣٨٣
مجالات السمع	٣٨٧

Made searchable using ScribeTools.com

مفهوم السمع

أولًا: المعنى اللغوي:

السمع: مصدر سمع، والسمع: حِسّ الأذن[1]، يقول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[الأعراف: ١٩٥].

يقال: «سمعته وسمعت به، واستمعوه وتسامعوا به، واستمع إلى حديثه، وألقى إليه سمعه، وملأ مسمعيه ومسامعه وسامعته، وهو منّي بمرأى ومسمع. وسمّع به: نوّه به. وفعل كذا رياء وسمعة، وإنما يفعل هذا تسمعة وترئية، وذهب سمعه في الناس: صيته»[2].

والاستماع: الإصغاء بقصد الفهم، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ٢٠٤][3]، ومنه التسمّع: الإصغاء خفية؛ وهو مصدر تسمّع؛ أي: أصغى إليه خفيةً[4].

ويعتبر أحد الحواس الخمس المعروفة: السمع، البصر، الذوق، اللمس، الشم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وقد جاء تعريفه في كتب الاصطلاح أنه: «قوة في الكائن الحي تدرك بها الأصوات بواسطة الأذن»[5].

وهذا على عمومه في الكائنات الحية، أما باعتبار تخصيص الإنسان فيمكن تعريفه بأنه: الحاسة التي وهبها الله للإنسان؛ ليتمكن بها من إدراك الكلام والأصوات.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١/ ٥١١.
(٢) أساس البلاغة، الزمخشري١/ ٤٧٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٤) ٤ انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة أحمد مختار عبد الحميد عمر ٢/ ١١٠٨.
(٥) ٥ انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٢٢، التعريفات، الجرجاني، ص ١٦١.

السمع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (سمع) في القرآن الكريم (١٨٥) مرة [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٤	﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾ [الملك:٧]
الفعل المضارع	٦١	﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف:٨٠]
الفعل الأمر	١٣	﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ۝٢٥﴾ [يس:٢٥]
المصدر	٢٢	﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة:٩]
اسم الفاعل	٣	﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٢٢﴾ [فاطر:٢٢]
اسم المفعول	١	﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ [النساء:٤٦]
الصفة المشبهة	٤٧	﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]
صيغة المبالغة	٤	﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢]

وجاء السمع في القرآن على ثلاثة أوجه [٢]:

الأول: سمع الصوت: ومنه قوله تعالى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

الثاني: سمع القلب وفهمه: ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١] يعني: لا يستطيعون سمعًا بقلوبهم وفهمًا للحق.

الثالث: الإجابة والقبول: ومنه قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [آل عمران:٣٨] **يعني: مجيب الدعاء.**

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٥٨-٣٦١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب السين ص٦٣٤-٦٣٨.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٢٦١-٢٦٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٥٧-٢٦٠، نزهة الأعين النواظر، ص٣٤٥-٣٤٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٢٢١-٢٢٣.

Made searchable using ScribeTools.com

الألفاظ ذات الصلة

١ البصر:

البصر لغة:

قوة في الكائن الحي تدرك المرئيات بواسطة العين[١].

البصر اصطلاحًا:

هو تلك القوة الربانية التي أوجدها الله في عيني الإنسان ليدرك بها ما حوله، وأودعها في قلبه وعقله ليميز بين الخبيث والطيب، ويختار لنفسه الطريق الصحيح.

الصلة بين السمع والبصر:

هناك فرقان بارزان بين السمع والبصر:

الأول: فرق في الآلة فهي في السمع: الأذن، وفي البصر: العين، وكلاهما يحتاج إلى العقل المدرك؛ ليدلا على الاصطلاح القرآني لهما، وبدونه تكون الدلالة فيهما على المعنى اللغوي فقط.

الثاني: في المدركات بهما؛ فالمدركات بالسمع الكلام والأصوات، والمدركات بالبصر الصور الهيئات.

٢ الاستماع:

الاستماع لغة:

سماع الكلام بقصد، والإقبال عليه؛ للاستفادة منه[٢].

الاستماع اصطلاحًا:

الإقبال بالسمع؛ للتفهم والاعتبار[٣].

الصلة بين السمع والاستماع:

في اللغة السمع يكون بدون قصد، بينما الاستماع مصحوبًا بقصد.

وقيل: السمع هو صفة موهوبة، والاستماع فعل مكتسب[٤].

(١) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٤٦.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩، معجم الصواب اللغوي أحمد مختار عمر ١/ ١١٧.
(٤) انظر: المصادر السابقة.

٣ الإنصات:

الإنصات لغة:

يدل على السكوت والاستماع للحديث، يقال أنصت: إذا سكت سكوت مستمعٍ[١].

الإنصات اصطلاحًا:

هو سماع للكلام المؤدي إلى النظر والاستدلال، والاهتداء بما جاء في القرآن[٢].

الصلة بين السمع والإنصات:

يزيد الإنصات عن السمع؛ بكونه مصحوبًا بالنظر والاستدلال، زيادة على الفهم الأوليّ، فقد يفهم المرء الكلام فهمًا نافعًا بعد سماعه، لكنه إذا تأمله ونظر فيه؛ خرج منه بفوائد وأحكام زائدة.

٤ الإصغاء:

الإصغاء لغة:

والإصغاء: الإمالة[٣]، وكل شيء مال إلى شيء أو معه[٤]، ويقال: أصغى إليه برأسه وبأذنه: أمالها يسمع، والإناء: أماله؛ ليصب ما فيه[٥].

الإصغاء اصطلاحًا:

هو ميل القلب وهواه للكلام[٦].

الصلة بين السمع والإصغاء:

السمع هو القوة التي يسمع بها المرء الأصوات، من غير ميل سابق لمعناها، أما الإصغاء فهو استماع لما يهواه المرء.

وقيل: السمع: هو الصفة التي يستطيع المرء بها فهم الكلام النافع، وتدبره والانتفاع به، أما الإصغاء: فهو استماع كلام الباطل، والميل له ومحبته.

---

(١) الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٢٣٨.
(٣) العين، الفراهيدي ٤/ ٤٣٢.
(٤) كتاب الأفعال، ابن القطاع ٢/ ٢٥٦.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٥١٥.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٩.

Made searchable using ScribeTools.com

٥ الصمم:

الصمم لغة:

الصمم آفة تمنع من السمع، وتضعفه، وأصله الصلابة، ومنه الحجر الأصم[١].

الصمم اصطلاحًا:

انعدام سماع الحق والخير والهدى على سبيل الاتباع والانتفاع[٢].

الصلة بين الصمم والسمع:

هي علاقة تناقض، فهو على النقيض من السمع لغة واصطلاحًا.

٦ الوقر:

الوقر لغة:

هو الثقل في الأذن، ويطلق على الثقل المحمول[٣]، «ويقال للذي يسمع بعض السمع، في أذنيه وقر»[٤].

الوقر اصطلاحًا:

ثقل عن فهم ما يتلى عليهم من القرآن، وما يدعوهم إليه النبي من الإيمان[٥] فهمًا ينفعهم.

الصلة بينه الوقر وبين السمع:

علاقة تضاد، فقد يجتمع للإنسان سمع ضعيف، وصمم ضعيف؛ فيكون سببه الوقر، وهو الثقل في الأذن، وفي الاصطلاح: يسمع الإنسان القرآن ويفهمه، لكن لا ينتفع به؛ فيكون بسبب ما جعله الله من الوقر في أذنه بسبب إعراضه.

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٨٨، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٤٢، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥١.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٣١.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٢١٥، الصحاح، الجوهري ٢/ ٨٤٨، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/ ١٣٢.
(٤) المخصص، ابن سيده ١/ ٩٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٣٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٠.

اقتران السمع والبصر

قرن الله عز وجل في القرآن ذكر السمع مع البصر المتعلقان بالإنسان في (٣٨) آية كريمة.

وقد قدم القرآن ذكر السمع على البصر في أكثر الآيات، مما يدل على الأهمية الكبرى للعمل الذي يقوم به السمع في حياة الإنسان تعلّمًا وتعليمًا.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [السجدة:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس:٣١].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون:٧٨].

وغيرها من مواضع.

وقد استنبط العلماء المعاصرون من تقديم السمع على البصر حِكَمًا عديدة، منها:

١. فضل السمع على البصر إذ تعتبر حاسة السمع أهم للإنسان من حاسة البصر؛ لأن الفرد الأعمى يعتبر معزولًا عن عالم الأشياء، أما الأصم فإنه يعتبر معزولًا عن عالم البشر[(١)].

٢. تأكيد الدور الذي تقوم به الأذن؛ إذ إن الاحساسات الصوتية التي يسمعها الإنسان بأذنيه تصل مستوى الوعي أحسن من تلك التي تصله عن غير طريقهما كالبصر مثلًا، والذاكرة السمعية أرسخ من الذاكرة البصرية[(٢)]، وما أجمل الوصف القرآني للدور الإيجابي الذي تقوم به الأذن في وعي المؤمن إذ يقول تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ [الحاقة:١٢].

٣. وفي تقديم السمع على البصر لمحة إعجازية طبية إذ ثبت علميا أن «جهاز السمع يتطور ويتكامل جنينيًّا قبل جهاز

(١) انظر: الإدراك الحسي البصري والسمعي، السيد علي سيد أحمد وفائقة محمد بدر، ص: ٢٥٣.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر، صادق الهلالي، مجلة الإعجاز، ص: ٩-١٠.

Made searchable using ScribeTools.com

البصر»[1]، فبعد تبصرنا في الحقائق العلمية التي عرفت حديثا في علوم الأجنة والتشريح والفيزولوجيا والطب اتضح لنا الإعجاز العلمي في الآيات الكريمة التي تقدم فيها السمع على البصر، وخلاصة ما قاله العلماء في هذا المجال: هو أن القرآن الكريم قدم حاسة السمع على حاسة البصر ليشير إلى حقيقة علمية تتعلق بزمن تكون حاسة كل منهما وتشكلها، فحاسة السمع تتكون وتتشكل قبل حاسة البصر حسب الآتي:

- جهاز السمع يتطور جنينيًّا قبل جهاز البصر، ويتكامل وينضج حتى يصل حجمه في الشهر الخامس من حياة الجنين الحجم الطبيعي له عند البالغين، بينما لا يتكامل نضوج العينين إلا عند السنة العاشرة من العمر.
- يبدأ الجنين بسماع الأصوات وهو في رحم أمه وفي الشهر الخامس من حياته الجنينية، ولكنه لا يبصر النور والصور إلا بعد ولادته.
- تتطور وتنضج كل المناطق والطرق السمعية العصبية قبل تطور ونضوج مثيلاتها البصرية بفترة طويلة نسبيًّا. فكل الآيات التي تشير إلى خلق الإنسان ونشأته وذكر فيها السمع والبصر، قدم السمع على البصر؛ قد يكون -والله أعلم- الغاية منه إظهار هذا الإعجاز العلمي الذي لم نهتد لمعرفته إلا مؤخرًا بعد سبر غور الحقائق العلمية الحديثة التي أثبتت قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت:٥٣][2].

ويلاحظ أيضًا أن القرآن الكريم يفصل عند كلامه عن السمع والبصر بين أداة الحس (العين والأذن)، وقوة الإدراك (السمع والبصر)، فعند كلامه عن أداة الحس العين والأذن يقدم العين على الأذن، وذلك لأن العين تقع أمام الأذن في صنعة الله في رأس الإنسان، وهما أداتان لنقل الإشارات الحسية السمعية والبصرية إلى حيث يتم إدراكها وفهمها داخل مراكز السمع والبصر في المخ.

فمثلًا يقول الله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ﴾ [المائدة:٤٥].

وأما إذا تكلم القرآن عن السمع والبصر

(١) انظر: المصدر السابق ص٧.

(٢) انظر: الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، جدة ١٤٢٧/ ٢٠٠٦، ط٣، ص: ١٧-٢٨.

كقوى مدركة فيقدم السمع، وذلك لأن مركز السمع يتقدم على مركز البصر داخل المخ البشري، وهنا موطن الإعجاز في تطابق الإخبار عن هذين الأمرين.

وخلاصة القول في الإعجاز المتعلق بآيات السمع والبصر: أن هذه الآيات «فصلت بين الأعضاء (العين والأذن)، وبين القوى المدركة (السمع والبصر) وفي صنعة الله ما يطابق ذلك، فهناك أعضاء حس لاستقبال المؤثرات الحسية، وهناك مراكز داخل المخ البشري تتم فيها عملية الإدراك والفهم لهذه المؤثرات الحسية.

وأيضًا من ناحية الترتيب نجد أن الحق سبحانه رتب الآيات : العين قبل الأذن، والسمع قبل البصر، في غالب القرآن وها هو العلم اليقيني قد أثبت أنه بينما تتقدم العين الأذن في رأس الإنسان، فإننا نجد عكس ذلك الترتيب بالنسبة للمراكز، فمركز السمع يتقدم مركز الإبصار في قشرة المخ البشري. إذن طابق كلام الله صنعة الله، إنه الإعجاز: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١]»[1].

السمع في حق الله عز وجل

من صفات الله تعالى وأسمائه السميع، وهذا الأمر من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، وقد دل على ذلك آيات كثيرة في القرآن الكريم، وقد ذكر الله تعالى هذا الاسم الكريم في القرآن الكريم ثمان وثلاثين مرة بصيغة فعيل منكرًا ومعرفًا: (سميع).

وذكر هذا الوصف بصيغة الماضي (سمع) والمضارع (يسمع) و (نسمع)، وصيغة التعجب (أسمع).

وقد جاء ذكر سمع الله تعالى مقترنًا بأمور هي:

١. اقترنت صفة السمع في معظم آيات القرآن بصفة العلم، بل تقدمت عليها[2]، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة:١٢٧].

٢. اقترنت أحيانًا صفة السمع بالبصر كما في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١].

٣. اقترنت صفة السمع بالقرب، كما

(١) انظر: الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم، صادق الهلالي، وحسين اللبيدي، هيئة الإعجاز العلمي، ص ٥١.

(٢) انظر: معجم كلمات القرآن العظيم، محمد عدنان سالم و محمد وهبي سليمان، ص ٦٠٧-٦٠٨.

Made searchable using ScribeTools.com

في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ:٥٠].

ولعل اقتران صفة السمع بصفات البصر والعلم والقرب للدلالة على حضور هذه الصفة في كل آن وفي كل مكان، فكما أن الله تعالى يرى ويعلم كل شيء، وهو قريب من كل شيء، فهو كذلك يسمع كل شيء، سبحانه ما أعظم شأنه وما أجل سلطانه.

وقد ذكر الإمام البيهقي في كتابه الأسماء والصفات في: باب ما جاء في إثبات صفة السمع، أحاديثَ عديدة دالة على ثبوت صفة السمع لله تعالى(١).

ومنها: عن عائشة رضي الله عنها قالت: **(الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾** [المجادلة:١])(٢).

مسؤولية السمع

إن الله تعالى وهبنا نعمًا كثيرة لا تحصى، ومنها نعمة السمع التي تستحق منا شكره عليها، ولكن قليلًا من الناس من يشكر الله على هذه النعم.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المؤمنون:٧٨].

وقد حملنا الله مسؤولية تجاه هذه النعمة التي سيسألنا عنها، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء:٣٦].

لذا فمسؤوليتنا تجاه السمع تكون بأن نستخدمه في الأمور النافعة لنا في دنيانا وأخرانا، وأن نصونه عما يضرنا في دنيانا وأخرانا.

أولًا: استخدام السمع في الأمور النافعة:

ومن ذلك:

- **استخدام السمع في التعلم والتدبر وأخذ العبرة.**

جعل الله السمع وسيلة أساسية في التعلم وتلقي العلوم، ولولاه لما استطاع الإنسان أن يتعلم العلم النافع. وجعل الله السمع أيضا وسيلة لإدراك عظمة الله وأخذ العبرة عبر إدراك آياته في الأنفس وفي الآفاق أو

(١) انظر: الأسماء والصفات، البيهقي، ص ٢٨٨-٢٩٢.

(٢) علقه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وكانه الله سميعًا بصيرًا)، ٩/ ١١٧، وأخرجه ابن ماجه في سننه، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، ١/ ٦٧، رقم ١٨٨.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٧/ ١٧٥.

في التاريخ، فقال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم:٢٣].

فالنوم ليلًا أو نهارًا هو من الآيات الدالة على قدرة الخالق سبحانه، وطريقة معرفة كونه آية من آيات الله هو الاستماع لأهل العلم والاختصاص، ولا يتم ذلك إلا بحاسة السمع، وكذلك فمن لم يتأمل آيات الله في النوم فهو كالنائم الذي لا يسمع.

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة:٢٦].

فقال: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأن طريقة معرفة إهلاك القرون الأولى إنما وصل إليهم عن طريق السمع، وليس عن مجرد التفكير والاستنباط، فمن كانت له أذن واعية يتعظ ويهتدي.

❁ **حث المؤمنين على الاستماع للقرآن الكريم وطاعة أوامر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.**

أي كتاب أجدر من كتاب الله تعالى بالاستماع إليه والتأمل فيه وتدبره والعمل به؟

ولا يكون ذلك إلا بالاستماع إلى آياته، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ومدح الله المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾ [الزمر:١٨].

ومدح الله تعالى وفد النجاشي الذين استمعوا للقرآن وآمنوا به، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣].

وبالمقابل ذم الله تعالى الذين لا يستمعون للقرآن فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ [الجاثية:٧-٨].

وقال أيضًا: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء:٢].

وإن قسمًا من هؤلاء الكافرين ينهى عن الاستماع للقرآن، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت:٢٦].

ومن سمات المؤمنين أنهم بمجرد سماع أوامر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فإنهم يطيعون.

قال الله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ

Made searchable using ScribeTools.com

﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ۗ﴾ [التغابن:١٦].

وقال تعالى أيضا: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور:٥١].

خلافًا للكافرين الذين ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:٩٣].

ثانيًا: صيانة استخدام السمع في الأمور الضارة:

❁ **صيانة السمع عن الغيبة وإشاعة الأخبار الكاذبة.**

جعل الله عرض المسلم محرمًا على غيره من المسلمين، فلا يجوز قدح المؤمنين وذمهم وخصوصًا عند غيابهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [الحجرات:١٢].

فمن سمع الغيبة يشترك مع المغتاب في أكل لحم أخيه ميتًا.

ومن باب الحفاظ على عرض المسلم أن لا يتكلم المرء بكل ما ينقل له عن المسلمين، بل عليه أن يتأكد ويتحرى قبل أن ينقل أي كلام، ولهذا قال الله تعالى معاتبًا الذين سمعوا حادثة الإفك وأشاعوها، فقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور:١٦].

وكذلك فإن المسلم عليه أن يتحرى كل ما ينقل إليه من الناس الفاسقين.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾ [الحجرات:٦].

وقد مدح الله نبيه صلى الله عليه وسلم لما ذمه المنافقون بأنه يصدق كل ما يقال له، فقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ﴾ [التوبة:٦١].

فالمؤمن أذن خير ينقل الخير ولا ينقل الشر، ويتحرى في نقله.

❁ **صيانة السمع عن الاستماع للخائضين في ذم الدين الإسلامي.**

نهى الله تعالى المؤمنين أن يجلسوا في مجلس فيه كفر بالله وآياته، أو فيه استهزاء بأي شيء متعلق بالإسلام، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء:١٤٠].

فالمسلم يصون سمعه عن مجالسة المفسدين في الأرض الذين يذمون الإسلام والمسلمين بإعلامهم الكاذب، ويحبون

أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين، ويذيعون الأخبار الكاذبة عنهم، ويخوفون المؤمنين من تطبيق أحكام الشريعة وغيرها، قال الله تعالى يذم المنافقين الذين يفشون أسرار المؤمنين لأعدائهم: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ﴾ [النساء:٨٣].

ومن هؤلاء الأشرار ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان:٦] فيصد الناس عن دين الله وطاعته، وما يقرّب إليه من قراءة قرآن وذكر الله، وذلك بالغناء والاستماع له، وبكل ما كان من الحديث ملهيا عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه أو رسوله، فعن مجاهد: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ قال: الغناء والاستماع له وكل لهو.

وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ قال: هؤلاء أهل الكفر، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان:٧].

فليس هكذا أهل الإسلام، فسمع المؤمن يشبه النحلة التي تقع على الزهور فتخرج منها عسلا صافيا فيه شفاء للناس، وأما المنافق والكافر فسمعه كالذباب لا يقع إلا على الأوساخ.

أساليب ذكر السمع في القرآن الكريم

تنّوعت أساليب القرآن الكريم في الحديث عن السمع، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أسلوب المدح:

قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

فقد مدح الله تعالى أصحاب العقول والحجا، الذين يستمعون القول، ويفهمون ما سمعوه، ويستثمرون فهمهم في العمل الصالح، ويتبعون أرشده وأهداه، وأدله على توحيد الله والعمل بطاعته، ويتركون ما سوى ذلك من القول الذي لا يدل على رشاد، ولا يهدي إلى سداد، فأولئك وفقهم الله للرشاد وإصابة الصواب، لا الذين يعرضون عن إصابة الحق ويعبدون ما لا يضر ولا ينفع[1].

وجعل القرآن من صفة المؤمن الإجابة لحكم الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم، ويتعرض للتعبير عن ذلك بقولهم: سمعنا وأطعنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

(١) جامع البيان ٢٢/ ٢٤٥.

Made searchable using ScribeTools.com

[النور: ٥١].

ومن صفات المؤمنين: التأثر والخشوع عند سماع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

ثانيًا: أسلوب الذم:

ذم القرآن أولئك الذين لا يعملون بما سمعوه من حق، وجعلهم كالصمK بل في دركة أدنى من الحيوان ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل جعل القرآن من لا يؤمن بما سمع من الحق كالميتK قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠-٨١]، فالله تعالى يعلم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأنه ليس بهادٍ عن الضلالة من أعماه الله عن الهدى والرشاد، وأمات قلبه، ولا يمكنه أن يسمع إلا من يصدق بآياته؛ فهم مسلمون مطيعون مستجيبون لما دعوتهم إليه[1].

(١) قال ابن جزيّ الغرناطي: «أكد عدم سماعهم بقوله: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ لأن الأصم إذا أدبر وبعد عن الداعي، زاد صممه وعدم سماعه بالكلية».
انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزيّ ٢/ ١٠٧.

وقال الواحدي: «إنهم لفرط إعراضهم عما يدعون إليه من التوحيد؛ كالميت الذي لا سبيل إلى إسماعه، وكالصم الذين لا يسمعون، وما أنت بمرشد من أعماه الله عن الهدى وأعمى قلبه عن الإيمان»[2].

ثالثًا: أسلوب الأمر:

أتى ذلك في آيات عديدة مثل قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ٩٣].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بني إسرائيل بالأخذ بما نزل في كتابهم بثبات وعزم وفاعلية، ثم أمرهم بالسمع الذي يفيد الطاعة المباشرة، واختلف السياق حينما تحدث القرآن عن المؤمنين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالأسلوب نفسه فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟﴾ [التغابن: ١٦] فالفرق هنا أن الأمر بالسمع جاء بعد الأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة.

وأما خطاب بني إسرائيل فكان الأمر فيه مشددًا ومؤكدًا بتذكيرهم بعهد الله عليهم بالأخذ بأوامر التوراة بقوة ونشاط وجد والاستماع والطاعة لما فيها من أوامر إلا أن بني إسرائيل تعنتوا في طاعة نبيهم موسى عليه السلام فقالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾

(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٨٤.

[البقرة: ٩٣].

ويأمر الله تعالى المؤمنين بالاستماع والإنصات إلى آيات الله عند ما تتلى عليهم؛ ليتدبروها، ويتفكروا بها؛ طمعًا في أن تتنزل عليهم رحمة الله تعالى فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وكذلك يأمر الله تعالى الناس مؤمنهم وكافرهم أن يستمعوا المثل من أمثاله العجيبة، التي يضربها الله تعالى في القرآن؛ لإثبات وحدانيته وقدرته على الخلق والإبداع؛ فيؤمن به المؤمنون، وتقوم به الحجة على الكافرين، وليثبت لهم انتفاء ألوهية من سواه سبحانه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

فالخلق كلهم ليسوا فقط عاجزين عن خلق ذباب، بل هم أضعف من ذلك، إن سلبهم الذباب شيئًا لا يستطيعون إرجاعه؛ لأنه تحلل بمجرد امتصاص الذباب له، فمن عجز عن فعل ذلك؛ فهو عاجز -من باب أولى- أن يخلق، فإن ثبت عجزه؛ ثبت أنه ليس بإله، فكيف له أن يدعي الألوهية من دون الله تعالى ؟! ومن هنا كان جديرًا بكل الناس أن يستمعوا لهذا المثل؛ ليعتبروا.

رابعًا: أسلوب النهي:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

فجاء النهي عن أن يكون المؤمن مثل أولئك الذين أنعم الله عليهم بنعمة السمع، بيد أنهم عطلوها؛ بعدم اتباعهم للحق؛ فكأنهم لا سمع لهم أصلًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣].

أما المؤمنون فمن صفاتهم سماع أوامر الله تعالى وطاعة تلك الأوامر؛ ولهذا مدح الله المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

خامسًا: أسلوب التوكيد:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

أكد كلامه عن وسائل المعرفة الإنسانية السمع والبصر والفؤاد بـ(إن)، و(كل)، والجملة الاسمية؛ وذلك لتمكين المعنى في نفوس المخاطبين، وهو أن وسائل المعرفة والإدراك العظيمة هذه سيسأل عنها الإنسان يوم القيامة.

Made searchable using ScribeTools.com

ونجد أسلوبًا آخر للتوكيد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

فقد أكد الجملة بضمير الشأن (هو)؛ ليفيد القصر والاختصاص بأنه تعالى وحده وهب الإنسان وسائل المعرفة «وإنما خص السمع والأبصار والأفئدة؛ لأنه يتعلق بها المنافع الدينية والدنيوية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم، ومن لم يعملها فيما خلقت له؛ فهو بمنزلة عادمها، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

ومقدمة شكر النعمة فيها الإقرار بالمنعم بها، وأن لا يجعل له ندّ ولا شريك»[(١)].

سادسًا: أسلوب الاستفهام الإنكاري:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١].

فهنا أنكر على المشركين عدم استثمارهم لنعمة السمع في إدراك الحقائق الكونية والتفكر فيها، ومعرفة السنن الإلهية؛ كي يتعظوا بها، ولا سيما أن حاسة السمع جاءت في سياق الحديث عن الليل الذي تستخدم فيه هذه الحاسة أكثر من غيرها من الحواس.

ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

فقد أنكر على الكافرين عدم أخذهم العبرة والعظة[(٢)] بما سمعوه من قصص الأمم السابقة، التي أهلكها الله تعالى؛ لعصيانها وإنكارها رسالة الأنبياء عليهم السلام.

سابعًا: أسلوب القصر بـ(إنما):

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

فهنا استخدم أسلوب القصر بإنما؛ لحصر الاستجابة لأوامر الله تعالى في الذين يستفيدون من نعمة السمع حق الاستفادة، ويوظفونها في معرفة المعبود جل جلاله وعبادته كما شرع، أما الكفار الذين حرص النبي على هداهم؛ فلا وسيلة كي يستجيبوا ويؤمنوا به؛ لأنهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون؛ فهم موتى القلوب كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠].

(١) الكشاف، الزمخشري ٣/ ١٩٨- ١٩٩.

(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٢٣.

فكما أن الله تعالى هو وحده قادر على أن يبعث الموتى من قبورهم، فهو وحده تعالى قادر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان، أما أنت يا محمد؛ فلا تقدر على ذلك.

وأما وجه تشبيه الكفرة بالموتى؛ فلأن حياة الروح بالعلم ومعرفة الخالق سبحانه وتعالى كما أن حياة الجسد بالروح[1].

ثامنًا: أسلوب النفي:

ورد ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[الأعراف: ١٧٩].

نفى الحق سبحانه وتعالى عن أن يكون للكافرين سمع يرشدهم لمعرفة الحق، واتباعه، وجاءت صيغة الفعل بالمضارع للدلالة على تجدد هذا الأمر، وحدوثه عند هذا الصنف من الناس الذين ستروا نعمة الله بالكفر.

مجالات السمع

تعددت مجالات السمع في القرآن، وهذا ما سوف نبينه فيما يأتي:

١. ذكر السمع في مجال ذكر نعم الله على الإنسان.

فجعل الله له السمع والبصر والفؤاد؛ وذلك حتى يشكره هذا الإنسان، لا أن يكفره.

وتأتي أهمية سمع الإنسان في فهمه لأوامر الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ ولهذا بين القرآن الكريم لنا نوعين من الناس:

النوع الأول: المؤمنون الذين يستمعون للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم، ويتبعونهما فيما أمرا ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١].

وإذا ما استمع هؤلاء المؤمنون للقرآن يتلى؛ خشعوا، أو بكوا؛ ولهذا يكون جزاؤهم الجنة، حيث لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا ولا كذابًا، ولا يسمعون حسيس جهنم، وهم عنها مبعدون.

ومن صفات هؤلاء المؤمنين أنهم إذا استمعوا لشيء نافع؛ يتبعونه ويطبقونه فورًا قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾[الزمر: ١٨].

وهم أيضًا أبعد ما يكونون عن سماع

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٠.

Made searchable using ScribeTools.com

الغيبة أو النميمة أو غيرها، مما حرمه الله تعالى، فآذانهم آذان واعية، تصغي للحق وتعمل به، قال الله تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٢].

وقال تعالى يمدح مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١٣].

والنوع الثاني: الكفار والمنافقون والفاسقون، الذين يسمعون للقرآن وللنبي صلى الله عليه وسلم، ولا يعملون بما سمعوه، ويستهزئون بما سمعوه وبالنبي صلى الله عليه وسلم، وينهون غيرهم عن سماع هذا القرآن، ويأمرونهم بأن يلغوا فيه، ولهذا كان سمعهم نقمة عليهم؛ فشبههم الله تعالى بالدواب والموتى وأصحاب القبور.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

وعاقبهم في الآخرة بسماعهم لزفير جهنم، وعندها يندمون؛ لأنهم لم يستفيدوا من أسماعهم، ولا تحين مندم.

٢. الأمر بالاستماع إلى آيات الله المتلوة وتدبرها.

قد أمر الله تعالى المؤمنين في كتابه العزيز بأن يتلوا القرآن حق تلاوته، وأن يستمعوا له وينصتوا، وهذا الاستماع هو استماع تدبر وفهم، يتبعه عمل وخشية من الله تعالى ومحبة له سبحانه وتعالى، ومن ثمّ ينتج عن ذلك أمة؛ تكون خير أمة أخرجت للناس، إنها أمة الشهادة ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وأمة الحضارة؛ لأن الحضارة الحقيقية هي بالإنسان الصالح وبالعمل الصالح.

وقد حث الله المؤمنين في آيات كثيرة على تدبر القرآن، والتدبر يأتي بعد الاستماع، والتدبر هو: التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة[1]، وأول الآيات الآمرة بالتدبر نزولاً قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ورقمها حسب النزول هو ثمان وثلاثون، ونشير إلى آيات أخرى حول موضوع التدبر دون ذكر نصها، وهي: المؤمنون: رقم نزولها: أربع وسبعون، رقم الآية: ثمان وستون، والنساء: رقم نزولها: اثنان وتسعون، ورقم الآية: اثنان وثمانون.

ومدح القرآن الكريم المؤمنين الذين إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وهدى، ومدحهم أيضًا في أماكن عديدة أنهم تلين قلوبهم وجلودهم إلى ذكر الله، وتقشعر جلودهم من خشية الله، ويخرون للأذقان سجدًا يبكون، ويزيدهم خشوعًا.

هذه هي الصورة الرائعة التي يعرضها علينا القرآن الكريم عن طائفة السعداء الذين أنعم الله عليهم من ذرية آدم.

وفي المقابل يعرض علينا القرآن صورة

(١) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، عبدالرحمن حبنكة ص ١٠.

المغضوب عليهم، وموقفهم المعادي للقرآن الكريم؛ فهم لا يستمعون لهذا القرآن، ويلغون فيه، ويستهزئون بآيات الله تعالى، ويجعلون القرآن عضين، ويقولون إنه أساطير الأولين؛ فهم لم يروا فيه الحقائق الناصعة، بل زادهم ضلالة وإثمًا وعمى؛ لأن قلوبهم مقفلة، لا يدخلها نور القرآن ولا هداه؛ بما كانوا يكسبون من أعمال فاحشة منكرة، وبغيهم وطغيانهم في الأرض؛ فأضلهم الله عن صراطه المستقيم، وأعمى أبصارهم عن نوره المبين، وأصم آذانهم عن سماع الحق والقرآن الكريم.

٣. الأمر بالاستماع إلى آيات الله الكونية (بمعنى تدبرها والاعتبار بها).

أما المجال الرئيس الآخر لاستخدام السمع بعد الاستماع لكتاب الله المسطور، والأمر بالعمل به واتباعه، والخشوع له عند سماعه، فهو توجيهه نحو الاستماع إلى آيات كتاب الله المنظور في الكون؛ لتدبرها، وأخذ العبرة منها[١].

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧].

فالله الذي يستحق العبودية وحده، هو الذي له ما في السماوات والأرض، وهو الذي فصل بين الليل والنهار؛ لتسكنوا في الليل من عناء النهار، وإنما قال في الآية: ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ «لأن المراد منه: الذين يسمعون هذه الحجج، ويتفكرون فيها؛ فيعتبرون بها ويتعظون، ولم يرد به الذين يسمعون بآذانهم، ثم يعرضون عن عبره وعظاته»[٢].

والقرآن الكريم قد حث المؤمنين في آيات كثيرة على التفكر في ملكوت الله تعالى، وفي الكون؛ وذلك لإدراك عظمة الخالق سبحانه، والإذعان لقدرته وسلطانه، وقد قدر العلماء عدد الآيات التي تتناول أمورًا علمية بألف وأربعمائة آية، من مجموع آي القرآن، البالغ عددها ستة آلاف ومائتي آية، أي ما يعادل عشرين بالمائة من مجموع الآيات القرآنية.

والقرآن الكريم مليء بآيات تحث المؤمنين على التفكر والتعلم، مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [محمد: ٢٤].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

وغيرها من آيات كثيرة تأمر باستخدام العقل؛ لاكتشاف قوانين الكون، وتسخيرها لمصلحة الإنسان.

٤. الأمر بالاستماع إلى قصص الماضين للاعتبار.

إن الله عز وجل قص علينا في كتابه العزيز أحسن القصص، وذكر كثيرًا من

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢٨٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٠.

Made searchable using ScribeTools.com

القصص؛ لأخذ العبرة منها ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

فذكر الله لنا سننه في نصرة أنبيائه وعباده الصالحين، وتوفيقه لهم؛ فقص علينا أحسن القصص، كقصة يوسف وإخوته، وقصة موسى وقومه، وقصة داود وسليمان، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام، وكذلك قص القرآن علينا قصص الأقوام التي عاقبها الله تعالى، بعد أن عصوا وعتوا عن كل ذكر؛ لنعتبر ونستقيم على شرعه.

فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٦-١٣].

والاتعاظ بكل ما سبق إنما يكون بعد سماع ما حل بهذه الأقوام من عقوبة إلهية؛ ولهذا استخدم السمع؛ للاعتبار بالأحداث في معرض الكلام عن الأمم السابقة فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: ٢٦].

وذكر القرآن الكريم فقدان السمع لدى الأصنام، كدليل على أنهم ليسوا بآلهة فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١-٤٢].

فقد نقض ألوهية الأوثان، وأنها لا تستحق العبادة؛ بكونها لا تسمع، ولا تبصر من يدعوها، وصفة السمع من أهم صفات الألوهية؛ فقد قال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

والدعاء مخ العبادة؛ فالوثن إذا لم يسمع دعاء الداعي؛ فأي منفعة في عبادته؟!، وإذا كانت لا تبصر بتقرب من تقرب إليها؛ فأي منفعة في ذلك التقرب؟![1]، والإله يجيب دعاء عباده ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

والأوثان لا تجيب أحدًا، ثم كيف يليق بالإنسان أن يعبد من هو دونه في الصفات؛ إذ إنه يسمع ويرى، وهذه الأوثان لا تسمع ولا ترى؟

وهكذا نرى كيف اهتم الإسلام بحاسة السمع التي هي آلة مهمة في معرفة الحقائق في كل من الكتابين كتاب الله المسطور (القرآن)، وكتاب الله المنظور (الكون).

موضوعات ذات صلة:

البصر، الرؤية، القرآن

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٤٣.